

من كتاب لؤلؤ الخليج - خالد عبد الله زيارة - المجلس الوطني للثقافة - قطر - (2005)

الوالد سعيد بن سالم البديد :

في هذا الجانب نستعين بالوالد سعيد بن سالم البديد المناعي ❖ ، صاحب الخبرة العميقة في هذا المجال لوصف حياة الغوص إبان تلك الحقبة ، حيث عمل في البحر منذ صغره (رضيفا) ثم (غيصا) وتدرج في مراتب الغوص حتى أصبح نوخذه، بعد أن كسب خبرة ومهارة غير عادية ، وبعد ثلاثة وعشرين عاما من العمل نوخذه في سفن الآخرين، اشترى سفينة خاصة به، وتواصل عمله لحسابه إلى مرحلة كساد مهنة الغوص على اللؤلؤ في المنطقة .. ويعد الوالد سعيد البديد من جيل المخضرمين الذين عاصروا مرحلة ما قبل النفط بكل شقائها وتعبها، ومرحلة ما بعد النفط التي عايشها بروح الوثائق والمجرب الذي يعتمد عليه كمرجع في أمور الغوص والسفر... بالإضافة إلى ممارسته الطب الشعبي الذي اشتهر به كأفضل من يقدم الوصفات الطبية الشعبية وخاصة (الكي) ، كما أن له تجاربه الخصب في مجال الفنون الغنائية الشعبية وفنون الشعر، فهو شاعر شعبي خليجي صدر له ديوان شعبي بعنوان (ديوان المناعي) عام ١٩٨٨م.



❖ ولد سعيد البديد في مدينة الدوحة بدولة قطر سنة ١٩١٦م / ١٣٣٤ هجري ، وتوفي في يوم



وحول الغوص وأهواله نبحر مع الوالد سعيد البديد في محيط ذكرياته الواسع، لنحط رحالنا معه عند كل مرسى، ليشرح في سرد قصة حياة الرجال الأشاوس الذين تكبدوا شظف العيش من أجل حياة كريمة مغموسة بالشقاء والعناء والتعب.

في ذلك يقول: يتحمل الغواصون صنوفا من العيش المضني و المتعب والمخاطر والأمراض، فليس لدى البحارة خلال موسم الغوص على اللؤلؤ ذلك الطعام الذي يساعد أجسامهم الضعيفة على هذا العمل الشاق والمتعب، ولا ذلك الماء الذي يروي عطش (القيض) الكاوي، فالماء حار وكدر وملوث بالحشرات مثل الصراصير (الزهيوية) ومقنن بمقادير.. فالقذارة في المأكّل والمشرب، وأما التمر الذي يعد الوجبة الهامة للغاصة فتقع عليه الحشرات والديدان، وحتى النوم الملاذ الأخير للبحارة في آخر يومهم المضني لا يهناون به، لان المكان غالبا ما يكون رطبا وضيقا على سطح السفينة، فيكونون متلاصقين بعضهم لبعض، وينامون أحيانا على المحار الذي يكون صلبا وخشنا وله رائحة كريهة، وبعض البحارة يجلبون معهم (مفرشا) عبارة عن قطعة من النسيج تسمى (جودري) طوله ١٦٠ سم وعرضه ٥٢ سم وعليه (جادر) قطني خفيف .. ويصاب بحارة الغوص (الغاصة و السيوب) بأمراض عديدة تتم معالجتها بالأدوية الشعبية مثل الصبر والعشرج والجعدة وغيرها من الوصفات.. بالإضافة إلى الحجامة و الكي بالنار، وهو العلاج المهم لديهم لأكثر الأمراض.

ويضيف الوالد سعيد البديد حول الأمراض التي تصيب البحارة فيقول: إن أغلب تلك الأمراض هي ما تعرف بالطنان وانفجار الأذن و آلامها وأم الزيفة والإسهال والإمساك وألم الصدر ومرض العين ، أما عن طعام الغواصين فهو يتألف من الأرز والتمر، واعتمادهم طيلة النهار على التمر، وأكثر من يقبل على التهام التمر هم (السيوب) أما (الغاصة) فيأكلون القليل منه في أوقات معينة، حتى لا تمتلئ معداتهم فلا يستطيعون الغوص ، وفي المساء يتناولون العشاء وهي الوجبة الرئيسية، وأشهى أكلاتهم (المحمر) أو (البرنيوش) كما يطلق عليه أهل قطر و أهل البحرين ، وبعض البحارة يتشاركون فيما بينهم بكمية من الدهن (الخالدي) الطيب، فيستخدمونه لرشه على الأرز لإعطاء نكهة زكية إلى الأكل مع السمك.. أما الماء فيكون غالباً قذراً وغير مستساغ، ويحفظ في أوعية تسمى (تانكى)، ويختلط طعام الماء برائحة المسامير والأخشاب المصنوعة منه، زد على ذلك الحشرات القذرة، ومع ذلك يقبلون على شربه والطبخ منه وبعض (الغاصة والسيوب) يأخذون كمية قليلة منه بعد استئذان النوخذة لدباغة جلودهم ليلاً من الأمراض.

ويواصل الوالد سعيد البديد وصفه لحياة البحارة حيث يقول: إن العمل اليومي على السفينة خلال فترة الغوص يبدأ في الصباح الباكر وتتراوح مدة العمل فيه بين ١٢ ساعة و ١٤ ساعة، وتزيد في الصيف إلى ١٦ ساعة، فينزل الغيصة إلى البحر واطعاً (القطام) على رقبتة بواسطة خيط رفيع



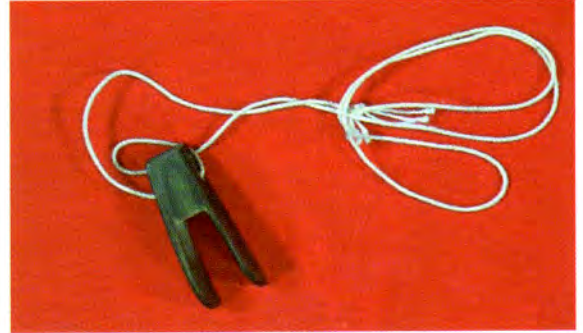
و(القطام) أداة تشبه الملقط مصنوعة من قطام السلاحف، يضعها (الغيص) على أنفه لمنع تسرب الهواء أو دخول الماء إليه، ويمسك الغيصة بحبل قصير يسمى (القلطة) مربوط بأحد مجاديف السفينة، كما يضع (الدين) على رقبتة وهو وعاء مصنوع من الحبال الرفيعة على شكل سلة وله قوس خشبي في الأعلى يعلقه الغيصة في رقبتة لوضع المحار فيه، ويضع (الزيبيل) وهو الحبل

الذي يربط به الحجر لإنزال الغيصة إلى قاع البحر في رجليه ويبلغ طوله ٣٦ متراً ثم يضع (الأيدة) أو (الجددة) وهو حبل النجاة بالنسبة للغيص والذي يجره السيب بواسطة ويبلغ طوله من ٧٢ إلى ٨١ متراً، وبعد أن يأخذ الغيصة النفس، يضع القطام على أنفه ثم يغوص ، وفي قاع البحر عند جمع المحار، يستخدم الغيصة (الخبط) وهو مصنوع من الجلد ويشبه القفاز وذلك لحفظ يده من الأحجار القاسية ، وقبل أن ينتهي نفس الغيصة يجر (الايده) ويكون السيب لحظتها متيقظاً، فيجره في الحال بأقصى قوته وبعد إخراجها يتناول منه (الدين) ويتركه يستريح نحو خمس دقائق، ثم يعود ثانية للغوص، وهكذا حتى



تنتهي نوبته وهي عشر مرات وتسمى (قحمة)، والمرة الواحدة في الغوص تسمى (تبة) ويظل يعمل في الغوص مدة موسم الغوص كله طيلة النهار حتى تغرب الشمس متحملاً الشقاء والتعب، ويختلف الغاصة من حيث المكوث في قاع البحر حسب قوته ، ولكن غالباً لا تتجاوز دقيقتين ونصفاً عند

الأقوياء منهم، ويتعرض الغاصة إلى مشاكل التنفس، حين ينقطع نفسه وهو بين القاع ووسط البحر فأحياناً يخرجونهم وهم في حالة غيبوبة، و أحياناً أخرى تصل إلى الموت، إذا لم يتمكنوا اللحاق به وهو في الرمق الأخير، فحياة الغيص تكون مرهونة بالسيب، فلو غفل عن الإشارة التي يعطيها الغيص، ولم يقم بسحبه في وقته، ربما توفى الغيص من جراء هذا الإهمال... ويظل الغواصون في عملهم هذا يجمعون المحار طيلة يومهم، ويتنقلون في الهير من محل إلى آخر، وعند طلوع الشمس يبدأون العمل بفتح المحار بحثاً عن اللؤلؤ بواسطة نوع من السكاكين المعدة للفتح وتسمى (المفالق) .. وعند القفال يعرف النواخذة موعد حلوله بعد أن تهب رياح السابعة المعروفة لدى أهل البحر في الخليج بصفة عامة، ومن برودة الماء يعرفون أن الجو أصبح بارداً، ويكون ذلك غالباً في منتصف الشهر التاسع (سبتمبر) تقريباً .



وفي الأيام الغابرة نجد رجال الخليج في موسم الغوص يعملون ويأكلون وينامون على ظهر السفينة تحت السطوة الحديدية لقانون البحر الذي يمثله (النوخذة)، وغالباً ما يكون هو نفسه صاحب السفينة، ويأخذ وضعه الوظيفي على أساس خبرته الطويلة في معرفة أفضل بنوك اللآلئ في قيعان الخليج والتي يسمى (الهيرات) .. كما أنه يبهر فقط بضوء الشمس والنجوم وبمعرفة الواسعة بمياه الخليج .. وكانت الرحلة في موسم الغوص طلباً للؤلؤ بعيداً عن الدار والأهل والولد لعدة أشهر رحلة متصلة من العناء فوق سطح البحر الذي لا يرحم ولا يراف ، ويبدأ موسم الغوص في شهر إبريل حتى سبتمبر من كل عام ، وكانت سفن الغوص تقوم بثلاث رحلات خلال الموسم بين كل منها أسبوع للراحة وتجهيز الرحلة التالية ، فالرحلة الأولى تستمر لمدة شهرين، والثانية أربعين يوماً، أما الثالثة فتستمر حتى يكتمل أربعة شهور وعشرة أيام ،

وكانت كل سفينة تموّل بكميات مناسبة من الطعام، وتلجأ في حالة نضوب مخزونها إلى شراء ما يلزمها من بعض السفن الأخرى المخصصة للتموين.. وتبدأ فترة الغوص من شروق الشمس إلى غروبها، كما يتطلب من الغواصين أن يغوصوا ثماني مرات، والمسألة برمتها تتوقف على العمق وهي ما يقارب أُل ١٢ مترًا (٣٠ إلى ٤٠ قدمًا) يمنح خلالها قسطًا من الراحة.

أن الحياة (الإسبارطية) هي السمة السائدة على ظهر سفينة الغوص، وتتسم بالصرامة وبساطة الاقتصاد في الإنفاق وحتى في الكلام، ودائمًا ما يتعرض الغواصون لسوء التغذية مع استمرارية تناول القهوة والتمر في وجبة الإفطار، أما السمك والرز فهي لوجبة العشاء، وعليه فإن آثار النعمة التي تبدو على أجسادهم سرعان ما تختفي في بداية الموسم وحينما يرجعون إلى ديارهم في نهاية المطاف، يبدون وكأنهم أشباح أو هياكل عظمية متحركة، وهم يعانون من أمراض الرئة والتهابات الجلد الفطرية والإسقربوط (داء تورم اللثة) بالإضافة إلى الروماتيزم والتهابات المفاصل، أضف إلى ذلك ما يواجهونه دائمًا من خطورة هجمات سمك القرش، ولا ننسى معاناتهم البطيئة من فساد الذاكرة بسبب نقص الأوكسجين أثناء غطسهم لفترات طويلة وبصورة متكررة خلال اليوم.



وعندما يقوم (النوخذه) بتسويق اللؤلؤ فإنه يدفع نقدا لكل عضو في الطاقم ، يقول الوالد سعيد البديد إن الأرباح يتم توزيعها بطريقة القسمة الهرمية، أي حسب الرتبة والسلطة ، وتقسم بعدالة وبدقة كما هو متفق عليه ، فالنصيب الأكبر يوضع جانبا ليمنح للنوخذه، وجزء منها للسفينة، والمتبقي منها يقسم بنسب على ضوء الوضع الوظيفي، فكل شخص ينال حسب مرتبته.. فنجد الغواصين سريعا ما يستعيرون مؤنهم وباستمرار قبل بداية الموسم وذلك لسد حاجات أسرهم للستة أشهر المقبلة التي يقضونها في البحر، فإذا كان محصول الموسم وافرا فأن ذلك فقط يعطيهم الحياة للستة أشهر المقبلة، دون اللجوء للدين والاقتراض مرة أخرى.. أما إذا لم يحدث هذا، فإن شبح الجوع والمعاناة المتزايدة أو حتى لنقل أن الموت يرخي ظلاله عليهم ولا يتركهم بسهولة .. فإذا ما قدر لرجل من البحارة الموت فإن مسئولية أبناءه الوفاء بالتزامات والدهم وتسديد الدين عنه، وبهذا النهج نجد كثيرا من الغواصين مكبلين بقيود الدين، قبل أن يبدأوا في أول غوص لهم.